

❁ دور "أم البراهين" وتأثيرها "حقائق التوحيد"

في تفعيل سنة الله تعالى في تغيير ما بالنفس

Om Al-barahin" and its "Hakaik Al-Tawhid"

And their role in activating the Sunnah of God Almighty in

Changing what is in the soul

د. عمار قاسمي*

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، كلية أصول الدين، قسنطينة، (الجزائر)

ammargasmi@univ-emir.dz

تاريخ الإرسال: 2023/02/10 تاريخ القبول: 2023/09/08 تاريخ النشر: 2024/01/30

ملخص:

إن "حقائق التوحيد" هو العنوان الذي وسَمَ به عبد الرحمن الثعالبي كتابه الذي حاول فيه تأثيل وتأسيس المفاهيم المحورية في كتاب "أم البراهين" لـ محمد بن يوسف السنوسي، لهذا فإن هذا البحث يهدف إلى: إبراز دور هذا المصنف "حقائق التوحيد" في تفعيل سنة الله تعالى في تغيير ما بالنفس.

وقد وصل إلى مجموعة من النتائج أهمها: أن "أم البراهين" التي تتمثل في الشهاداتتين: (لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ)، هي التي تقود المسلم إلى معرفة أركان الإيمان، وبلوغ معرفة الحق جل وعز، ويكون ذلك عن طريق الذكر والتحقق بمعاني الإيمان الكامنة فيها. وأن التحقق بهذه المعاني يكون بطريقتين: النظر السببي الذي هو: ملاحظة الظواهر للكشف عن قوانينها السببية حتى يصل إلى العلم، والنظر السُنني الذي هو: تدبُّر الآيات التي تتضمنها الظواهر للكشف عن السنن التي توصله إلى الإيمان.

الكلمات المفتاحية: أم البراهين؛ حقائق التوحيد؛ المنظور السنني الشامل؛ تغيير ما بالنفس؛ عبد الرحمن الثعالبي.

* المؤلف المرسل

Abstract:

"The Facts of Tawhid" is the title given by Abdurrahman el-thaalibi, in which he tried to glorify and root the statues concepts in The Mother of Proofs by Mohammed bin Yusuf al-Senussi, so this research aims to highlight the role of this work "The Facts of Tawhid" in activating the Sunnt of ALLAH in changing oneself.

The research has reached a set of findings, the most important of which is that it is the "mother of proofs" which consists of the two testimonies: (there is no ALLAH but the messenger of Ahct ahct), which leads the Muslim to know the pillars of faith, and to achieve knowledge of the truth, all and above, and to verify the meanings of faith inherent in it. Verification of these meanings is also in two ways: causal consideration: observing phenomena to reveal their causal laws until they reach science, and the sunni consideration that is: managing the verses contained in phenomena to reveal the years that bring them to faith.

Keywords: Oum Al-Barahin; Hakaik Attawhid; the comprehensive Sunni perspective; the change of the soul; Abd al-Rahman al-Thaalibi.

مقدمة:

إن أول الآيات الكريمة التي نزلت على سيدنا محمد ﷺ كانت أول رحمة رحم الله بها عباده وأول نعمة أنعم الله بها عليهم، وفيها التنبيه على ابتداء خلق الإنسان من علقه، وأن من كرمه تعالى أن علّم الإنسان ما لم يعلم، فشرّفه وكرّمه بالعلم وهو القدر الذي امتاز به آدم عليه السلام على الملائكة.

والعلم تارة يكون في الأذهان، وتارة يكون في اللسان وتارة يكون في الكتابة بالبنان ذهني ولفظي ورسمي، والرسمي يستلزمهما من غير عكس.

ورأس كل هذه العلوم ومشكاتها كلمة واحدة هي (لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ) (أم البراهين)، التي هي النواة الوحيدة الصالحة لخلافة الإنسان في الأرض وتحمله الأمانة التي عجزت السماوات والأرض والجبال عن حملها، لأن التوحيد يتميز عن كافة الرؤى والمناظير الأخرى بوظيفتين؛ التخلية المحررة للعُمران البشري من دواعي الفساد والخلل، والتحلية المكرسة لكل دواعي التمكين والصالح والإصلاح.

ولما كانت الأمة الإسلامية تعاني من مفارقة عجيبة؛ فرغم أنها مسؤولة على الحضارة البشرية ومؤمنة عليها لأن الدين الخاتم نزل فيها وكلفها بعقيدة "الشهادة على الناس"، إلا أنها عجزت عجزاً تاماً عن أداء مسؤوليتها لأنها كانت ومازالت تتعرض لعملية سلب منسق؛ أحدهما نهب خيراتها المادية بالاستيلاء على مواردها، والأخرى: محو قيمها الروحية بنشر الفساد بين أبنائها، بإبعادهم عن عقيدتهم بطريقة هادئة ومنهجية، وهيكلتهم ضمن أفكار وتوجهات لا تمت بصلة إلى وطنهم وأمتهم.

ولما نالت "أم البراهين" المعروفة بالعقيدة الصغرى للإمام السنوسي قدم صدق في قلوب المغاربة أجمعين، وحازت قصب السبق لديهم بين كتب العقيدة والتوحيد، وتقبلوها بقبول حسن وغيرت حالهم.

ولما كان أول تأثيل لمفاهيمها في الجزائر هو كتاب الشيخ عبد الرحمن النعالي "حقائق التوحيد"، ونال هذا التأثيل مقاصده وحقق غايته، فإن السؤال المطروح: كيف يمكن تفعيل الأبعاد التربوية والعملية في كتاب "حقائق التوحيد" حتى تؤدي إلى تفعيل سنة الله في تغيير ما بالنفس؟ اقتداء بما ورد في الأثر (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يكن يعلم).

وللإجابة على هذا السؤال يفترض البحث أن هناك خلل في المنطلقات العلمية والمعرفية للحضارة القائمة التي أمسكت بزمامها الثقافة الغربية، وهذا الخلل يكمن بالذات في طريقة النظر إلى الظواهر، هل هي نظرة سببية تعتمد على العقل المجرد من الغيب أم هي نظرة سننية مُسدَّدة ومؤيَّدة بالوحي؟

وللتحقق من هذه الفرضيات للكشف عن الفرضية الصحيحة، يرسم البحث أهدافا منها: محاولة إمالة اللثام عن جهود الشيخ عبد الرحمن الثعالبي في الكشف عن الحبل المتين (الاعتصام بالله والتأليف بين القلوب) الذي يربط بين العقل والنفس والجسم من جهة وبين الروح (النفخة الربانية) والوجدان من جهة أخرى، من خلال بيان مهام العقل في تحقيق ذلك، لأجل فقه الذات وعلاقاتها وتغيير ما بالنفس، وبناء الرؤية الكونية لتحقيق قوة الدفع والحركة والفعل للخروج من المأزق وتحقيق الريادة الحضارية الإنسانية، من خلال؛ التعرف على الأبعاد التربوية والعملية في العقيدة الصغرى، والكشف عن كيفية استثمار هذه العقائد في الحياة المعيشة، والتعرف على مهام العقل المختلفة وكيفية استخدام فعالياته العليا في تفعيل مركبات ونعم الإنسان (الروح والنفس والجسم)، والسعي إلى بلوغ الفكر السنني الذي يتوج النظر السببي بالنظر السنني، وذلك بالتعرف على أدوات فقه الذات وعلاقاتها الكامنة في حقائق التوحيد، ودور العقل في دفعها نحو التآلف والانسجام والفعل والحركة الحضارية.

ولتحقيق هذه الأهداف سلك البحث منهج الاستقراء كمنهج محوري، واعتمد مجموعة من الآليات المنطقية واللسانية، خاصة المتعلقة منها بتوجيه الفكر.

فجاءت خطة البحث زيادة عن المقدمة والخاتمة في ثلاثة مباحث: الأول: اهتم بتلخيص مضامين متن "أم البراهين" والوقوف عند أهم شروحها ليبيّن موقع "حقائق التوحيد" لعبد الرحمن الثعالبي من هذه الشروح. والثاني: حاول أن يبين بأن "أم البراهين" و"حقائق التوحيد" أساس تكوين البنية التصورية وبناء النظام المعرفي الإسلامي. والثالث: حاول أن يقف عن التأثيل الثعالبي لـ: "أم البراهين" وتفعيل سنة الله تعالى في تغيير ما بالنفس.

_____ "أم البراهين" وتأثيلها "حقائق التوحيد" ودورها في تفعيل سنة الله تعالى في تغيير ما بالنفس

1. ملخص مضامين متن "أم البراهين" وأهم شروحها:

1.1 ملخص مضامين متن "أم البراهين":

"أم البراهين" هو العنوان الذي وسّم به أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي كتابه: العقيدة الصغرى "التي اشتهر فضلها، وظهرت بركتها، وذاع صيتها، وطارت كل مطار، وانتشرت في جميع الأقطار وانتفع بها الخاص والعام"¹، و"الأم" هي "كل شيء يُضمّ إليه سائر ما يليه"²، وهذه "الأم" في هذا المصنف هي كلمتي الشهادة (لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ)؛ "فقد بان لك تَضَمُّن كلمتي الشهادة -مع قلة حروفها- لجميع ما يجب على المكلف معرفته من عقائد الإيمان في حقه تعالى، وفي حق رسله عليهم الصلاة والسلام، ولعلها لاختصارها واشتمالها على ما ذكرناه، جعلها الشرع ترجمة على ما في القلب من الإسلام، ولم يقبل من أحد الإيمان إلا بها"³. فلب الموضوع إذن في هذا الكتاب هو كلمتي الشهادة: (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ﷺ)، كما بيّن اندراج جميع مضامينه فيهما.

افتتح السنوسي كتابه بالبسملة والحمدلة والصلاة على سيدنا ومولانا رسول الله ﷺ.

ثم بدأ بعرض أنواع الحكم العقلي الثلاثة على الأشياء والظواهر وهي:

¹ أبوزيد عبد الرحمن الثعالبي. حقائق التوحيد، تحقيق وتعليق: نزار حمادي، الكويت: دار الضياء للطباعة والنشر والتوزيع، (ط1، 1434هـ-2013م)، ص3. توجد نسخة أخرى ضمن مجموع مشتمل: كتاب الرؤى والمنامات، الجامع الكبير، حقائق التوحيد، غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد، إرشاد السالك، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، (ط خ تلمسان ع ث إس، 2011م)، ص21-43.

² الخليل بن أحمد الفراهيدي. كتاب العين، ج1، تحقيق: عبد الحميد هندواي، بيروت: دار الكتب العلمية، (ط1، 1424هـ-2003م)، ص87.

³ أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي. أم البراهين، تحقيق: خالد زهري، بيروت: دار الكتب العلمية، (ط1، 1424هـ-2003م)، ص31.

1- أقسام الحكم العقلي: الوجوب والإمكان والاستحالة، وبّين الفرق بينها، حتى يُقدم حلاً نهائياً لمشكلة "العقل والنقل" التي بلبلت النظام المعرفي للأمة المسلمة، وزعزعت كيائها وهدت أركانها ومزقتها إلى شيع وطوائف، منذ الانزلاق الأول بعد نهاية الخلافة الراشدة، وحتى يعيد بناء البنية التصورية والنظام المعرفي للمسلم الذي يعتقد بالعقيدة الإسلامية، التي تعتبر العقل البشري ركناً أصيلاً في بنائها جنباً إلى جنب مع أدلة الشرع التي دعت المكلفين إلى التفكّر والتدبر والتعقل، وقبلت شهادة العقل السليم الناتجة عن القلب السليم وعن التفكير والفهم والفقه.

2- واجب المكلف معرفة صفات الله جل وعز والرسول عليهم الصلاة والسلام: حدد للمكلف واجبين كبيرين:

- يجب على المكلف أن يعرف في حق الله ﷻ هذه الصفات الثلاثة: (الواجب، الاستحالة، الجواز).

- يجب أن يعرف مثل ذلك في حق الرسول عليهم الصلاة والسلام.

أولاً: عرّض صفات الله عز وجل الواجبة والمستحيلة والجائزة في أربع وأربعين صفة وحدد معناها وأدلتها المختصرة من الكتاب والسنة وصنفها إلى أربعة:

أ- الصفات النفسية (الثبوتية): الدالة على نفس الذات دون معنى زائد عليها وهي صفة الوجود.

ب- الصفات السلبية (التنزيهات): وهي التي تنفي ما لا يليق بالله عز وجل، فصفة القدم تنفي الحدوث، وصفة الوجدانية تنفي وجود شريك لله عز وجل وهكذا.

ج- صفات المعاني: وهي الصفات الوجودية القائمة بالذات الإلهية مثل القدرة والإرادة... إلخ

د- الصفات المعنوية: وهي اللازمة لصفات المعاني السابقة فيلزم من وجود صفة القدرة كونه تعالى قادراً، والإرادة كونه تعالى مريداً،... وهكذا.

_____ "أم البراهين" وتأثيلها "حقائق التوحيد" ودورهما في تفعيل سنة الله تعالى في تغيير ما بالنفس
ثانيا: حدد الصفات الواجبة في حق الرسل عليهم السلام في ثلاثة؛ الصدق والأمانة، وتبليغ
ما أمروا بتبليغه للخلق، ثم الصفات المستحيلة وهي أضداد الصفات السابقة، ثم الصفات
الجائزة التي تدور حول الصفات البشرية التي لا تنقص من مراتبهم العلية.

3- معنى الألوهية في قول (لا إله إلا الله): ثم بين معنى القيمة الأسمى التي يحصل بها
اليقين وهي الألوهية، والتي هي: "استغناء الإله عن كل ما سواه، وافتقار كل ما عداه إليه"⁴،
ثم شرح الاستغناء والافتقار وبين أن حدوث العالم يدخل ضمن الافتقار.

4- قول: (محمد رسول الله) يتضمن باقي أركان الإيمان: ثم بين أن الشق الثاني من
الشهادتين يدخل فيه؛ الإيمان بسائر الأنبياء، والإيمان بالملائكة عليهم السلام، والإيمان
بالكتب السماوية، والإيمان باليوم الآخر، ثم راح يشرح وجوب الصدق واستحالة الكذب
عليهم وجواز الأعراض البشرية عليهم.

5- الذكر بالشهادتين وسيلة لتحصيل عقائد الإيمان وبلوغ معرفة الحق: ثم أوصى بكثرة
ذكر الشهادتين مستحضرا لما احتوت عليه من عقائد الإيمان "حتى تمتزج مع معانيها بلحمه
ودمه، فإنه يرى لها من الأسرار والعجائب إنشاء الله تعالى ما لا يدخل تحت حصر"⁵.

ثم ختم كتابه بخاتمة يؤكد فيها على أهمية التوحيد ويدعو أن يكون القلب حاضرا بنطق
الشهادتين عند الموت، ثم الصلاة والسلام على المصطفى والحمد والخروج من الحول والقوة.

⁴ محمد بن يوسف السنوسي. أم البراهين، مصدر سابق، ص 30.

⁵ نفسه، ص 31.

2.1 أهم الشروح المنجزة على متن "أم البراهين":

أول شرح على "أم البراهين" هو شرح السنوسي ذاته، يقول في مطلعته رضي الله عنه: "ومن جملة نعم مولانا العظيمة، ومنحه الفائقة الكريمة، أن وفقنا سبحانه بفضلته في هذا الزمان الكثير الجهل لوضع عقيدة صغيرة الجرم، كثيرة العلم محتوية على جميع عقائد التوحيد. ثم تأييدها بالبراهين القطعية القريبة لكل من له نظر سديد.

ثم ختمناها بشيء لم نره سمح به أحد غيرنا من المتقدمين ولا المتأخرين، وهو أنا شرحنا كلمتي الشهادة التي لا غنى للمكلف عن معرفتها وإلى عذب مواردنا يشدد عطش المتعطشين، إذ بها تفرع أبواب فضل الله تعالى والدخول في زمرة المتقين، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

وبإتقان معرفتها يسلم العبد من آفات الخلود في غضب الله ويترقى بفضل الله تعالى إلى أعلى عليين.

فذكرنا معناها أولاً ثم بينا وجه دخول جميع عقائد الإيمان فيها بحيث تبتهج عند ذلك بذكرها قلوب المتقين وينبسط على بواطنهم وظواهرهم ما انطوى من محاسنها فأصبحوا يتبخترون في حلل معارفها بين رياض الجنة مترددين.

فدونك أيها المتعطش للدخول في زمرة أولياء الله تعالى عقيدة لا يعدل عنها بعد الاطلاع عليها والاحتياج إلى ما فيها إلا من هو من المحرومين، إذ لا نظير لها فيما علمت.

وهي بفضل الله تعالى تزهر بمحاسنها على كبار الدواوين، فتثق أيها الحافظ لها إن فهمتها، بغاية الأمانة، وأشكر الله تعالى إذ منَّ عليك بنعمة عظيمة طرد عنها كثير من الخلق فباءوا في أصول عقائدهم بأعظم رزية، وأخلص لي من دعائك إذ أخرجها من جوفي وحرَّك بها يدي ولساني مولاي المنفرد بإيجاد الكائنات كلها والعالم بكل طوية.

_____ "أم البراهين" وتأثيلها "حقائق التوحيد" ودورهما في تفعيل سنة الله تعالى في تغيير ما بالنفس
وها أنا أمدك ثانيا بعون الله تعالى بشرح لها مختصر يكمل لك منها المقصود،
ويكشف لك إن شاء الله تعالى الغطاء عما إنبههم عليك منها من المعنى المسدود، فتظفر إن
شاء الله تعالى بكمياء السعادة وإكسير النجاة وتظل تحتني بها إن وفقك الله تعالى ثمرات
الإيمان"⁶.

وانطلاقاً من هذا الشرح الذي تقدم به السنوسي لكتابه "أم البراهين"، أَلَفَ أستاذه
الشيخ عبد الرحمن الثعالبي⁷، كتابه "حقائق التوحيد" الذي خصصه لبيان اصطلاحات كتاب
تلميذه، من خلال بيان المعاني الخاصة لكلماته المحورية، وهذا عمل تأثيلي يحتاجه الطالب
الذي يروم تحصيل ذلك العلم الشريف، للوقوف بحسن التصور على مدلول الكلمات التي لا
يمكن فهم مقصودها إلا بالوقوف على حقيقتها، لأن "الحكم على الشيء فرع من تصوره"⁸
فالتصديق الجازم للقضايا يحتاج إلى تصور أطرافها الحُكْمِيَّة.

⁶ ينظر: أحمد بن عيسى الأنصاري. تهذيب واختصار شروح السنوسية أم البراهين، اختصار وتهذيب: عمر عبد الله كامل، دمشق: دار
المصطفى للنشر والتوزيع، (ط1، 1425هـ-2005م)، ص12-13، كما ينظر: أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي. خطبة
شرح الصغرى، مخطوط محفوظ في الخزانة العامة بالرباط، رقم: (5د)، ورقة: (155 ب 156).

⁷ لم نخصص مبحثاً مستقلاً في هذا البحث، يهتم بترجمة حياة الشيخ عبد الرحمن الثعالبي رحمه الله والتوسيع فيها نظراً لأهميتها، وهذا
تجنباً للتكرار، لأن هذا العمل هو حلقة في ملتقى وطني حول علماء الجزائر، من بين محاوره الاهتمام بهذا الجانب، ويكفي أن نحيل
القارئ على بعض المراجع والمصادر والدراسات من بينها: عادل نويهض. معجم أعلام الجزائر منذ صدر الإسلام حتى العصر الحاضر،
الجزائر: دار الوعي للطباعة والنشر والتوزيع، (د ط، 1438هـ-2017م)، ص119-120، وتوفيق المدني في كتابه: "عبد الرحمن
الثعالبي علامة الجزائر"، وكذلك عدة مقالات ودراسات للباحثين: الصادق دهاش، رمضان بخلف، نذير حمادو، سعيد عليوان، وهذا
على سبيل المثال لا على سبيل الحصر.

⁸ هذه قاعدة جلية مشهورة بين العلماء على اختلاف مذاهبهم، ينظر مثلاً: أحمد بن تيمية. مجموع الفتاوى، ج6، جمع وترتيب عبد
الرحمن محمد قاسم، المملكة العربية السعودية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، (د ط، 1425هـ-2004م)، ص295.

وثاني شرح لهذا الكتاب "أم البراهين" هو الشرح الذي قدمه تلاميذه، مثل: الشيخ أبو عبد الله محمد بن عمر بن إبراهيم الملاي التلمساني (ت898هـ)، يقول بعد التدبيح: "فقد سألتني بعض المحبين، أشرك الله قلبي وقلبه بنور اليقين، وجعلني وأياه من العلماء العاملين والمخلصين، أن أضع لهم شرحا مختصرا مفيدا، يستغني به هو وغيره من المبتدئين على فهم عقيدة الشيخ الإمام، حامل لواء شريعة الإسلام، الزاهد العابد السالك الناسك الولي الصالح الوارث الناصح، القطب العارف بالله تعالى، الغوث المكاشف إمام الطريقة، الجامع بين الشريعة والحقيقة، أبي عبد الله سيدي محمد بن يوسف السنوسي الحسني رحمه الله تعالى، ورضي عنه ونفعنا به، فأجبتة إلى ذلك، قاصدا به نفع نفسي ولم شاء الله من أبناء جنسي، جعله الله خالصا لوجهه الكريم، ونفع بهذا العلم من له رغبة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، بجاه سيدنا ومولانا محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم ولا حول ولا قوة إلا بالله"⁹، وواضح أن هذا الشرح هو شرح تمثيلي موجه للمبتدئين.

وقد أسرد أبو القاسم سعد الله رحمه الله تسلسل بعض شُراح العقيدة الصغرى¹⁰، خاصة أشهر الشراح منهم، لكنه لم يتطرق إطلاقا إلى كتاب "حقائق التوحيد" ودوره في تأثيل مفاهيم أم البراهين¹¹، واكتفى فقط بذكر أن الثعالبي كان أستاذا للسنوسي، وأنهما اتجاها اتجاها مشتركا نحو علوم الآخرة والروحانيات والتصوف، وأن كلاهما لا يرتاح إلى الحُكَّام ولا إلى مجتمع عصره، واستنتج نتيجتين هامتين أولاهما: أن شراح السنوسي ومحشيه اتجهوا في شروحهم إلى علوم الباطن تبعا لروح العصر رغم أن السنوسي كان يجمع بين علوم الظاهر والباطن، وثانيهما: أن علوم التوحيد كلها في الجزائر خلال العهد العثماني كانت تقوم على إنتاج السنوسي وأحمد بن عبد الله (المنظومة الجزائرية).

⁹ الملاي. شرح أم البراهين، تحقيق: - خالد زهري، بيروت: دار الكتب العلمية، (ط1، 1424هـ-2003م)، ص51.

¹⁰ للاستزادة ينظر: أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1، 1998م)، ص90-94.

¹¹ ينظر: أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1، 1998م)، ص95.

_____ "أم البراهين" وتأثيلها "حقائق التوحيد" ودورهما في تفعيل سنة الله تعالى في تغيير ما بالنفس وربما لم يُذكر الثعالبي كأول شارح لصغرى السنوسي، لأنه لم يسلك الطريق المعهود في الشرح؛ بأن يشرح في شرح المتن كلمة، كلمة، وإنما سلك طريقاً منطقياً بدأ فيه ببيان حقائق المفاهيم، لأن المنطق في الأساس هو: صون الفكر من الخطأ في المفهوم والخطأ في التعريف والخطأ في الدليل أو القياس أو الاستدلال، فإذا اضطرب المفهوم اضطرب التعريف وبطل القياس، وهنا تظهر أهمية ومكانة شرح عبد الرحمن الأخضري¹² لصغرى السنوسي لأنه استطاع أن يؤسس المنطق تأسيساً إسلامياً ويوجهه توجيهاً إيمانياً يقود المتدرج في سلمه إلى معرفة الحق، فكتابه: "السلم المنورق"¹³ و"شرح أم البراهين"، وكتاب المغيلي: "لب اللباب في رد الفكر إلى الصواب"¹⁴، مع "أم البراهين" و"حقائق التوحيد" من شأنهم أن يعيدوا بناء النظام المعرفي الإسلامي وتأسيسه تأسيساً صحيحاً وتغيير البنية التصورية للمسلم المعاصر الذي تشوهت مفاهيمه وتصوراته نتيجة الغزو الثقافي والمعرفي الغربي.

¹² ينظر: عبد الرحمن الأخضري. شرح أم البراهين (صغرى السنوسي)، تقديم وتحقيق وتعليق: لحسن بن علجية، بيروت: دار الكتب العلمية، (ط1، 2018م)، ص50-51، وقد اعتبر المحقق أن الأخضري من أوائل الجزائريين الذين وضعوا شروحا على صغرى السنوسي، ولاحظ أن شرحه اعتمد كثيراً على المنطق وتوسع في البحث والنظر العقلي والتقسيم الدقيق وخاصة في مبحث الإلهيات، ولاحظ كذلك أنه حذا في ذلك حذو السنوسي وعبد الرحمن الثعالبي وغيرهم.

¹³ ينظر: عبد الله بن محمد بن حزام الصريف العمراني. سلم السلم، بيروت: دار الكتب العلمية، (ط1، 2018م)، وهو تشجير لنظر السلم المنورق في علم المنطق للأخضري، وهو تأسيس جديد لعلم المنطق اتجه به صاحبه اتجاه رياضي يقوم على التسهيل وتوضيح الأساليب وصحتها.

¹⁴ ينظر: محمد بن عبد الكريم المغيلي. لب اللباب في رد الفكر إلى الصواب، تحقيق وتقديم وتعليق: أبو بكر بلقاسم ضيف الجزائري، بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، (ط1، 1427هـ-2006م).

2. دور "أم البراهين" في تكوين البنية التصورية وبناء النظام المعرفي الإسلامي:

لما كانت المعرفة معرفتان: معرفة من الخارج على طريقة العلماء، ومعرفة من الداخل على طريقة المتصوفة؛ الأولى: تقوم على الإدراك العلمي النظري الذي يُحصّل القوة الإجرائية، والثانية تقوم على الإدراك العملي الوجداني الذي يحصّل القدرة المعرفية الإيمانية.

ولما كان الحكم في اللغة العربية هو "العلم والفقه والقضاء بالعدل... والفصل والبت والقطع"¹⁵، واصطلاحاً هو؛ "ظاهرة نفسية ملازمة للإدراك، أو هو فعل ذهني قوامه إيقاع النسبة بين شيئين أو رفعها، سواء كان ذلك نتيجة إدراك حسي مباشر أو نتيجة برهان عقلي"¹⁶، فإن الحكم العقلي يبني أساساً على أمرين؛ اللغة والفكر، فرغم تعدد زوايا النظر في القرآن الكريم إلا أنه يصب في قطبين أساسيين: "اللغة والفكر، فالقرآن كتاب عقدي وأدبي في الوقت ذاته"¹⁷، واللغة والعقيدة متلازمان، لأن اللغة في حد ذاتها تتكون من الدال اللغوي والمدلول العقدي، وهذا ما جعل الشاطبي يربط بين اللغة والشرعة: "إذا كانت الشريعة عربية فلا يفهمها حق الفهم إلا من فهم اللغة العربية حق الفهم لأنهما سيان في النمط، ما عدا وجوه الإعجاز، فإذا فرضنا مبتدئاً في فهم العربية فهو مبتدئ في فهم الشريعة، أو متوسطاً فهو متوسط في فهم الشريعة، والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية، فإذا انتهى إلى الغاية في العربية كان كذلك في الشريعة، فكان فهمه فيها حجة، كما كان فهم الصحابة وغيرهم من الفصحاء الذين فهموا القرآن حجة، فمن لم يبلغ شأوهم، فقد نقصه من فهم الشريعة بمقدار التقصير عنهم، وكل من قصر فهمه لم يكن حجة، ولا كان قوله مقبولاً"¹⁸.

¹⁵ محمد بن منظور. لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، القاهرة: دار المعارف، (د ط، د ت)، 951.

¹⁶ جميل صليبا. المعجم الفلسفي، بيروت: دار الكتاب اللبناني، (د ط، 1982م)، ص489.

¹⁷ محمد عبد الله دراز. مدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي وتحليل مقارن. ترجمة: محمد عبد العظيم، الكويت: دار القلم، (د ط،

1404هـ-1984م)، ص15، هذه المطابقة يجب إعادة النظر فيها لما فيها لها من مخاطر.

¹⁸ الشاطبي. الموافقات، ج5، المملكة العربية السعودية: دار بن عفان للنشر والتوزيع، (ط1، 1997م)، ص53.

_____ "أم البراهين" وتأثيلها "حقائق التوحيد" ودورهما في تفعيل سنة الله تعالى في تغيير ما بالنفس

ولما كان الكلام الدال أقسام ثلاثة؛ اللفظ والجملة والنص، فإن الكلام العلمي أيضا أقسام ثلاثة؛ "الدال التصور" الذي هو لفظ العلم، و"الدال القانون" الذي هو جملته، و"الدال النظرية" الذي يمثل نصه، والكلام العقدي هو الآخر أقسام ثلاثة؛ "الدال المفهوم" الذي هو لفظ العقيدة، و"الدال التعريف" الذي هو جملة العقيدة، و"الدال الدليل" الذي هو نص العقيدة قرآنا كان أو سنة، يقول الآمدي رحمه الله: "حق على كل من حاول تحصيل علم من العلوم أن:

1- يتصور معناه أولا بالحد أو بالرسم ليكون على بصيرة فيما يطلبه؛

2- وأن يعرف موضوعه: وهو الشيء الذي يبحث في ذلك العلم عن أحواله العارضة له تمييزا له عن غيره.

3- وما هي الغاية المقصودة من تحصيله؛ حتى لا يكون سعيه عبثا.

4- وما عنه البحث فيه من الأحوال التي هي مسائله لتصور طلبها.

5- وما منه استمداده؛ لصحة إسناده عند روم تحقيقه إليه.

6- وأن يتصور مبادئه التي لا بد من سبق معرفتها فيه لإمكان البناء عليها"⁽¹⁹⁾.

كيف يمكن جعل العقيدة تصل العقل بالوحي، وتركيز النفس وتقوي الجسد وتهدئ الوجدان، وفي كلمة جامعة تغيير ما بالنفس؟ وهذا السؤال يستدعي بث الحياة في المفهوم العقدي والتعريف العقدي والدليل العقدي، وذلك ب: تأصيل المفهوم والتمثيل للتعريف والارتقاء بالنظر في الدليل (قرآنا وسنة) من مرتبة الظن والتخييل إلى مرتبة اليقين، أو من مرتبة النظر السببي إلى مرتبة النظر السنني؛ وقد قام الشيخ عبد الرحمن الثعالبي بمهمة التأصيل والتأثيل من خلال الكشف عن حقائق التوحيد، وقام الشراح مثل عبد الرحمان الأخضرى والملاي بمهمة الشرح والتمثيل، أما مهمة الارتقاء بالنظر في الدليل لتحقيق اليقين فهي حصيلة التدرج في منازل السائرين ومدارج السالكين.

¹⁹ علي بن محمد الآمدي. الإحكام في أصول الأحكام، ج 1، تعليق: - عبد الرزاق عفيفي، بيروت: المكتب الإسلامي، (ط2)،

1402هـ-1982م)، ص5.

ولغة الوحي التي يروم "النظر السنني" فقه العقائد الإيمانية بها، هي لغة مطلقة لا تقع تحت تأثير خبرات الزمان والمكان، ولا تحت تأثير التطور، بل تستوعب التطور وتوجهه نحو غايات ومقاصد خالدة، تقوم على نحو هو نحو القلوب، "ونحو القلب القصد إلى حميد القول بالقلب، وحميد القول مخاطبة الحق بلسان القلب، وينقسم ذلك إلى: المناجاة والمناجاة، فالمناجاة صفة العابدين، والمناجاة نعت الواجدين، المناجاة على الباب، والمناجاة على بساط القرب، فموقف العابد أبواب الخدمة، ومربع²⁰ الواحد بساط القربة"²¹.

وبما أن القرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي بقي، يحوي لغة الوحي نقية صافية، فإن القاموس الذي يجب أن نتوجه إليه لفقه آيات الله سبحانه وتعالى جزءان:

أحدهما: يمثل آيات القرآن الكريم حيث تتكرر الاستعمالات الإلهية لكلمات (التدبير والتفكير...)، تقدم في كل مرة بابا من معاني الأبواب المتدفقة من "أم البراهين" و"حقائق التوحيد". فالقرآن الكريم كتاب صارم الحكم على أبنائه وأعدائه جميعا كما يقول محمد الغزالي رحمه الله: "وربما كانت سنة الله في الأولين، تخوفهم بالخوارق حتى يرعوا، ورفع الجبال فوق رؤوسهم كي يزعمهم فيستقيموا. ولكن الله لم يرفع جبال (البرانس) فوق عرب الأندلس، حتى يدعوا مجونهم وفجورهم، فإنه ترك بين المسلمين كتابا يقول لهم: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ (النساء: 123)، فلا جرم أن يطردوا من ديار لم يحسنوا الخلافة عن الله ورسوله فيها"²².

فمهمة الإنسان هي النظر، في الآفاق والأنفس ليريه الله آياته فيهما، حتى يتبين له التوافق التام بين هداية الوحي والسنن الكونية والنفسية، فالعقل ينظر ليزن العلاقة بين الوحي والسنن، والوحي يمثل دلالة هداية وتوجيه، والسنن تمثل حقيقة ومقاصد. وكلما كان الإنسان على معرفة صحيحة بمقاصد العقائد وأصول فطرة الاجتماع الإنساني، كان ميزانه سليما يتوافق مع الفطرة السليمة والسنن ومع هداية الوحي، فالوحي يوضح كيفية الخلافة، والإنسان بتوجيه الوحي يدبر كيفية العمارة لتحقيق الخلافة.

²⁰ المُرْتَع: الموضع الذي يقيم فيه الناس أثناء الربيع، جمعه مرابع.

²¹ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري. نحو القلوب. بيروت: دار الكتب العلمية، (ط1، 1423هـ-2002م)، ص7.

²² محمد الغزالي. حصاد الغرور. القاهرة: دار الشروق، (دط، 1998م)، ص201.

_____ "أم البراهين" وتأثيلها "حقائق التوحيد" ودورهما في تفعيل سنة الله تعالى في تغيير ما بالنفس

والثاني: هو "الرؤية السننية الكونية الشاملة، التي تتضمن السنن الفطرية والنفسية والسنن الكونية، ويرتكز هذا الجزء على "سنن الآفاق والأنفس والهداية والتأييد"²³، إلا أن تجلي هذه السنن يتم بواسطة إرادتين: إرادة العلماء واستنطاق سنن الآفاق والأنفس، وفقه رسائلها ومعانيها، وشرطها أن تتم القراءة باسم ربها، ولذلك حين بدأ الوحي في غار حراء ب: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ⁽¹⁾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (العلق: 1-2)، ربط هذه القراءة بكتاب الخلق المنشور أولاً، ثم تخزين ثمرات هذه القراءة في أوعية الكتاب المسطور ثانياً، وبذلك تتجلى مشكلة النظام المعرفي الغربي، الذي أعرض عن قراءة كتاب الخلق باسم ربه، فأخطأ القراءة وأخطأ استخراج معانيها. وإرادة الأنبياء واستنطاق سنن الهداية والتأييد، وعلى رأسهم المصطفى ﷺ الذي يتلو اللغة الإلهية على الناس فيزكي نفوسهم وعقولهم من معوقات فقها، ويعلمهم مناهج فقها وتطبيقاتها، لهذا فهو القدوة الحسنة والسراج المير، لأي قراءة سننية في آيات الهداية والتأييد.

يتبين مما سبق أنه لا يكفي النطق بـ: "أم البراهين" (الشهادتين)، كما لا يكفي البحث عن براهين وأدلة علمية لإثباتها، لأن معرفة هذه العقيدة تكون بقدر درجة الإيمان، واليقين بها يكون بسعة المدارك وعمقها، فلا نروم أن نفهم "حقائق التوحيد" باللغة البشرية أو بالعقل المجرد والأدلة العلمية، إنما بالولوج إلى اللغة الإلهية المبثوثة في القرآن الكريم، هذا الولوج الذي لا يكون إلا بانفتاح القلب عن طريق الطهارة الحسية والمعنوية وتلاوة الآيات والتزكية وتعلم الكتاب والحكمة، وتعلم اللغة البشرية المحدودة، التي هي وسيلة للدخول إلى اللغة الإلهية الغير محدودة والتي هي ليست غاية في حد ذاتها، لأن فقه آيات القرآن الكريم يكون بالتدبر، والتدبر يستوجب انفتاح القلب وهذا لا يحصل إلا إذا تدرج الإنسان في مراتب الإيمان؛

من المرتبة الإسلامية وتطبيق أركان الإسلام، إلى المرتبة الإيمانية وتحقيق اليقين بأركان الإيمان، فإلى المرتبة الإحسانية التي يصل فيها الإنسان إلى التوحيد الخالص.

²³ الطيب برغوث. قواعد المنهج في الحركة الحضارية ليوسف عليه السلام، باتنة الجزائر: دار قاعة للنشر والتوزيع، (ط2008، م1)،

والرؤية السننية تحاول أن تسحبنا إلى مرتبة الإحسان لتتحلى حقيقة العقيدة الأم (أم البراهين) وما يتفرع عنها من عقائد و"حقائق التوحيد". وجل كتب الشيخ عبد الرحمن الثعالبي توجه المسلم إلى التصوف حتى يتدرج في هذه المراتب التي تصب في هذا الجانب الذي يبين "حقائق التوحيد" ويوصل إليها.

فالكلام العقدي - كما تبين - ينقسم إلى قسمين بيانين كبيرين اللفظ اللغوي والمدلول العقدي، واللفظ كلام دال على الحقيقة صريح لفظه محكم تركيبه، والمعنى كلام يحمل أسرار ومعاني وآيات عجيبة لا حدود لها، والدال هنا هو "لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ"، والمدلول هو ما يترتب عنه من عقائد إيمانية، "والعاقل هو الذي يكثر من ذكرها، مستحضرا لما احتوت عليه من عقائد الإيمان، حتى تمتزج مع معانيها بلحمه ودمه، فإنه يرى لها من الأسرار والعجائب؛ إن شاء الله تعالى، ما لا يدخل تحت حصر"²⁴.

فالبرهان الذي هو "أم البراهين" هو بالذات الشهادتين، وهو الدال المفهوم، والتعريف هو القول الشارح للمفهوم، والدليل هو كل البراهين التي تتفرع عن البرهان الأم وترجع إليه؛ فالمفهوم العقدي إذن له مدلولين مدلوله الاصطلاحي ومدلوله التأصيلي؛ الذي يمثل جملة العناصر الصرفية والدلالية التي تصاحب المعنى الاصطلاحي له من غير أن تدخل فيه كمقوم من مقوماته مثل: المدلول اللغوي والصيغة ومضمونها والتقابلات والتلازمات والاستعمالات داخل الحقل الذي يتحرك فيه اللفظ الموضوع لهذا المفهوم.

والتعريف العقدي له مضمونين؛ مضمونه التقريري الذي يبين طبيعة الشيء المعروف، ومضمونه التمثيلي الذي هو جملة العناصر التشخيصية والتشبيهية التي تصاحب تعريف المفهوم العقدي من غير أن تدخل فيه كمقوم من مقوماته مثل: الأمثلة والمقارنات والتشابهات.

²⁴ محمد بن يوسف السنوسي. أم البراهين، مصدر سابق، ص 31.

_____ "أم البراهين" وتأثيلها "حقائق التوحيد" ودورهما في تفعيل سنة الله تعالى في تغيير ما بالنفس والدليل العقدي له بنيتين؛ بنية استنتاجيه وبنية صورية تمثل؛ جملة الصور التي تصاحب الدليل العقدي من غير أن تدخل فيه كمقوم من مقوماته مثل: القصص والحالات الروحية والوجدانية.

فتأصيل دال الشهادتين أو "أم البراهين"، هو إسناد مجموعة من المدلولات إلى جملة من الحقائق المضمرة المستمدة من معانيها اللغوية، لهذا أطلق الثعالبي على كتابه اسم "حقائق التوحيد"؛ "حقيقة العقل: علم ضروري امتنع خلو الموصوف بالعقل منه، لا يشاركه فيه من ليس بعاقل، والانحصار أخص والانقسام أعم"²⁵، و"حقيقة الحكم العقلي: هو إثبات أمر أو نفيه من غير توقف على تكرر أو وضع واضح"²⁶، وهذا الفعل يستند إلى قوانين العقل التي حصرها السنوسي في ثلاثة: الوجوب والاستحالة والجواز أو الإمكان، وقام الثعالبي بتأثيلها إلى مجموعة أوسع نذكر منها: "حقيقة الأخص: هو الذي لا يوجد بدون الأعم، وحقيقة الأعم: الذي يوجد مع الأخص وبدونه، وحقيقة الواجب: الذي هو الثبوت الذي لا يقبل النفي، وحقيقة المستحيل: الذي هو النفي الذي لا يقبل الثبوت، وحقيقة الجواز: هو الذي يقبل الثبوت والنفي معا"²⁷، وهنا يتبن الاختلاف بين المنطقيين: المنطق الإسلامي الفطري، والمنطق الأرسطي الوثني الذي يضع مكان الإمكان مبدأ الثالث المرفوع.

²⁵ عبد الرحمن الثعالبي. حقائق التوحيد، مصدر سابق، ص 12.

²⁶ نفسه، ص 11.

²⁷ نفسه، ص 12.

3. التأثيل الثعالبي لـ: "أم البراهين" وتفعيل سنة الله تعالى في تغيير ما بالنفس:

الأم والأمة والإمامة والمأموم؛ كلها تأثيرات لمفهوم واحد هو "كل شيء يُضَمُّ إليه سائر ما يليه" - كما رأينا آنفاً-، والأمة والنفس مفهومان متقاربان من حيث وظيفة الضم، وبالتالي يمكن وصف الأمة الواحدة بالنفس الواحدة سواء كانت الأمة مجموعة أو مفرد، فقد يكون الفرد الواحد أمة إذا "انفرد بدين لا يشركه فيه غيره"²⁸، ومفهوم الأمة المسلمة إذا نُظِرَ نظرة سننية إلى حال المسلمين اليوم سيبدو إلى الوهم أقرب منه إلى الحقيقة، وأن الكلام فيه يبدو إلى اللغو أقرب منه إلى الفائدة، لأنها عجزت عجزاً تاماً عن أداء مسؤوليتها، فبالرغم من أنها الأمة التي نزل فيها الدين الخاتم وأنها هي التي تعتقد بعقيدة "الشهادة على الناس"، إلا أنها كانت ومازالت تتعرض لعملية سلب منسق؛ أحدهما: نهب خيراتها المادية والبشرية بالاستيلاء على مواردها، والأخرى: محو قيمها الروحية بنشر الفساد بين أبنائها، وكيف لا وقد دخل هذا السلب طورا خطيرا لم يسبق له نظير في التاريخ، ويتمثل في حرمان هذه الأمة من حقها في أن تختص بأصول اعتقادية، من لدن أولئك الذين أمسكوا بزمام الحضارة الإنسانية ونصبوا أنفسهم ظلما وزورا أوصياء عليها، وحسبنا شاهد على ذلك ما حملوا عليه ولاية أمور هذه الأمة، من تغيير برامجهم التعليمية والتربوية، بما يخدم مصالحهم في الهيمنة، حتى استدرجهم أن يحذفوا منها البسمة والآيات القرآنية والأحاديث النبوية لأنها لا تعجبهم ولا تلي رغبتهم الدنيوية الشاذة، وفي هذا منتهى الظلم والفساد، "والشيء الخطير في الجزائر هو إبعاد الشباب عن عقيدتهم بطريقة هادئة وممنهجة، وهيكلتهم ضمن أفكار وتوجهات لا تمت بصلة إلى وطنهم وأمتهم"²⁹ عن طريق بناء منظومة تربوية تخدم المصالح الفرنسية.

²⁸ أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، الكليات، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، (ط1)، 1419هـ-1998م)، ص182.

²⁹ يُنظر: سعيد عيادي. أثريات المسألة اللغوية في الجزائر، الجزائر: مطبعة بن مرابط، (د ط، 2014م)، ص149-150، فقد أشار إلى الانحرافات الخطيرة في المنظومة التربوية الجزائرية منذ تأسيسات الخبير الفرنسي بير كون Pierre Conn، كما يمكن الرجوع إلى مقال لنا نُشِرَتْهُ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مجلة البصائر بعنوان: "قراءة مفاهيمية في كتاب السنة أولى ابتدائي الجيل الثاني" للاطلاع على بعض آليات العبث بالمفاهيم الإسلامية والآيات القرآنية.

_____ "أم البراهين" وتأتيها "حقائق التوحيد" ودورهما في تفعيل سنة الله تعالى في تغيير ما بالنفس والعنصر الأساسي الذي يحدد اختلاف الأمة المسلمة عن الأمم الأخرى ويشر بل ويؤكد استثنائها للدور الحضاري، هو اختلافها في النظر إلى ظواهر الكون؛ فالظاهرة هي "الحدث الذي يتكرر في الظروف نفسها مع النتائج نفسها"³⁰ فهي كل ما يظهر للعيان مُحدّداً في الزمان والمكان، وحاملاً لأوصاف تقوم بينها علاقات موضوعية مثل: نزول الصيب، أو ظاهرة تعاقب الفصول الأربعة...إلخ.

بينما الآية³¹؛ هي الظاهرة منظور إليها من جهة المعنى الذي يزدوج بأوصافها الخارجية دالاً على الحكمة من وجودها، وهذا المعنى هو عبارة عن قيمة ينبغي لمن يدركها العمل بمقتضاها، مثل: معنى الحياة الذي تشير إليه ظاهرة نزول الصيب، أو معنى التجدد في تعاقب الفصول الأربعة، وقد يقارن الظاهرة أكثر من معنى، بحيث تصير الظاهرة الواحدة عبارة عن آيات متعددة؛ كما في حال نزول الصيب، فقد يشير بالإضافة إلى معنى الحياة المذكور سالفاً معنى "البعث" ومعنى "النعمة" أي إعادة الحياة، ومعنى "الرحمة"، وفي حال تعاقب الفصول قد يشير بالإضافة إلى معنى "التجدد" معنى "التداول" ومعنى "التلازم" ومعنى "التضاييف"، فيكون عن أربع آيات مختلفة لكل ظاهرة.

³⁰ مالك بن نبي. الظاهرة القرآنية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، تقديم: محمد عبد الله دراز ومحمود محمد شاكر، دمشق: دار الفكر، (إعادة ط4، 2000م)، ص64.

³¹ الآية في الأصل هي: العلامة الظاهرة وتستعمل في المحسوسات والمقولات يُقال لكل ما يُتفاوت به المعرفة بحسب التفكير والتأمل فيه، وبحسب منازل الناس في العلم آية"، يُنظر:- أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي. الكليات، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، (ط2، 1419هـ-1998م)، ص219، "والآية هي الدليل القاطع"، نفسه، ص220. وينظر أيضاً:- أبو الهلال العسكري. الفروق اللغوية، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، القاهرة: دار العلوم للثقافة والنشر والتوزيع، (د ط، 1419هـ-1998م)، ص71.

فملاحظة الظواهر للكشف عن قوانينها الطبيعية السببية³² يسمى "نظر سبي"³³ يوصل إلى العلم وهو نظر فرعي يقتصر على الظواهر.

أما تدبر وتفكر وتعقل.. الآيات التي تتضمنها الظواهر للكشف عن السنن الثابتة، يسمى "نظر سنني" وهو نظر أصلي يوصل إلى الإيمان.

والفكر السنني أو المنظور السنني الشامل هو الذي يسعى إلى تنويع النظر السبي بالنظر السنني، وبفضل هذا التأسيس يجد الصلاح في الحال؛ فيحيا حياة لا ضنك فيها، كما يرجو الفلاح في المال فيسعد سعادة لا شقاء معها.

النظر السبي هو نظر يقتصر على العقل المجرد من الوحي، والنظر السنني يكون بالعقل المسدد والمؤيد بالوحي.

وبالانطلاق من "أم البراهين" (الشهادتين) للسنوسي، والتدرج في التمثل بـ: "حقائق التوحيد"، يكون تنويع الفكر السبي بالفكر السنني، لأن أسمى المعاني أو القيم التي يمكن أن تدل عليها الظواهر في كليتها جاعلة منها آيات لا متناهية هي بالذات الشق الأول من "أم البراهين" الذي هو (لا إله إلا الله)، وهي القيمة التي تنهض بحاجة الإنسان إلى تعليل وجود الأشياء بدءاً من وجود ذاته، وبما أن الآية ليست مرتبة واحدة وإنما هي مراتب عدة، فإن الظاهرة التي استُشعرت فيها قيمة (لا إله إلا الله) تنزل أعلى هذه المراتب جميعاً، لهذا يميز

³² لا يخفى على أحد ما أحدثه مصطلح "السببية" من جدل في تاريخ المسلمين، حتى وقعوا في فتنة التكفير، فكل من قال بوجود سبب غير الله أصبح محل اتهام، وحصل جدل كبير بين القائلين بالعلة والقائلين بالسبب، وحل الأشاعة المشكلة بقولهم: "العلة هي المحرك للسبب وليست هي السبب" ينظر:- طه جابر العلواني. الأزمة الفكرية المعاصرة تشخيص ومقترحات علاج، الرياض: الدار العلمية للكتاب الإسلامي، (ط4، 1414هـ-1994م). والسبب لغة هو: "الحبل وما يتوصل به إلى غيره.. فهو ما يكون وجود الشيء موقوفاً عليه، وأسباب السماء هي مراقبها أو نواحيها" ينظر:- الكفوي. الكليات، مصدر سابق، ص503-504، "فكل شيء وصلت به إلى موضع أو حاجة تريدها فهو سبب، ويقال للطريق سبب لأنك بسببه تصل إلى الموضع الذي تريده"، نفسه، ص495.

³³ يستخدم طه عبد الرحمن مصطلحي "النظر الملكي" و"النظر الملكوتي" حيث يقول: "ولما كان كتاب الأمة يسمى عالم الظواهر بعالم الملك جاز أن نسمي النظر إلى الأشياء بوصفها ظواهر باسم النظر الملكي، ويسمى عالم الآيات باسم عالم الملكوت جاز أن نسمي النظر إلى الأشياء بوصفها آيات باسم النظر الملكوتي" ينظر:- طه عبد الرحمن. الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، بيروت: المركز الثقافي العربي، (ط1، 2005م)، 18-19.

_____ "أم البراهين" وتأثيلها "حقائق التوحيد" ودورهما في تفعيل سنة الله تعالى في تغيير ما بالنفس الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي بين نوعين من النظر: "النظر المصيب والنظر المخطىء، والنظر المصيب هو النظر الصحيح، وهو ترتيب معلومين فصاعداً على جهة يُتَوَصَّلُ بها إلى المطلوب، والترتيب جعل الأشياء في منازل، والعلم حصول صورة في الذهن، والجهة هي إدخال الداخل وإخراج الخارج، لأن الخطأ إنما يقع بإدخال ما ليس بداخل وإخراج ما ليس بخارج أو بهما، والمطلوب هو مجهول طلب علمه وأمكن فهمه، وهو قسمان تصور وتصديق والفن المسؤول على ذلك الترتيب هو المنطق"³⁴.

فالظواهر إذا دلّتنا على قوانين تحكمها أسباب سمي ذلك "نظر سبي"، وإذا دلّتنا على آيات تحكمها سنن سمي ذلك "نظر سنني"، والسننية هي التي تسعى إلى تنويع النظر السبي بالنظر السنني لتلافي أخطاء العلم المعاصر الذي يؤدي بالحضارة البشرية إلى الفتنة والنكبة والهلاك.

وواضح أن النظر السببي لا يمكن ولا يستطيع أن يلج إلى عالم الآيات أو عالم السنن، لأنه يعتمد العقل المجرد من الوحي، وهو المسلك الذي سلكته نظرية المعرفة اليونانية حين طابقت بين العقل والوجود واعتبرت العقل جوهر مكتف بذاته.

والمسلم إنما هو هذا الإنسان الذي يجزم بـ: (لا إله إلا الله) ذلك أن نظره السنني لا ينفك يطلب التوحيد في كل شيء يعرض له أو يحيط به مهما دق شأنه أو جل، وهذا يعني أن الظواهر كلها ترتقي إلى رتبة الآيات المختلفة، كما يعني أن اختلاف هذه الآيات الذي لا نهاية له، يجعله يعتقد على وجه اليقين أن لهذه الآيات إله أوجدها وأمدّها، ومن هنا يلزم أن النظر السنني هو النظر في مختلف الآيات للوقوف على قيمها هو الأصل في إيمان المسلم، فإيمان المسلم إيمان سنني بحق.

³⁴ محمد بن عبد الكريم المغيلي. لب الباب في رد الفكر إلى الصواب، تحقيق: - أبو بكر قاسم ضيف، بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، (ط1، 1427هـ-2006م)، ص24.

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿سَرَّيْهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (فصلت: 53)، فالنظر السبي إذا توج بالنظر السنني لا يبقى نظرا وإنما يصبح "رؤية سننية" وبَيَّنَّ الفرق بين الرؤية والنظر والبصر والمشاهدة³⁵، كلما اتصل العقل بالوحي زاد "النظر السبي" ارتباطا بالنظر السنني وكلما زاد التدبر والتفكر في الآيات التي تتضمنها الظواهر زاد النظر السنني وتحول إلى رؤية سننية فتتجلى الآيات وتنكشف السنن التي يصل من خلالها السالك إلى معرفة الحق جل وعز.

خاتمة:

وفي ختام هذه الدراسة يتبين أن كتاب "حقائق التوحيد" للشيخ عبد الرحمن الثعالبي، هو عمل تأثيلي لتفعيل المضامين المعرفية لكتاب "أم البراهين" لتلميذه الشيخ محمد أبو يوسف السنوسي، لأن "أم البراهين" التي هي الشهادتين والتي اجتهد السنوسي في استخراج أهم البراهين العقدية منها له أهمية كبيرة في إعادة بناء النظام المعرفي الإسلامي الأصلي، لهذا قام شيخه بتأثيل المفاهيم المحورية لأن بهذا التفعيل يشتغل النظام المعرفي ويرجع إليه صفاء الأول.

وبداية هذا التفعيل يكون بتغيير ما بالنفس، وتغيير ما بالنفس يكون بتتويج النظر السبي بالنظر السنني والانتقال من ملاحظة ظواهر الكون ملاحظة حسية مجردة تستند إلى فعاليات العقل المجرد من الوحي، وتسعى إلى اكتشاف القوانين السببية الظاهرة إلى تدبر هذه الظواهر والولوج إلى عالم الآيات الذي يكشف عن السنن الإلهية الثابتة، فأم البراهين جاءت لتثير العقول والقلوب بأدلة التوحيد وتجعل الإيمان بالله بمثابة اللحمة لنسيج حقائق العلوم الكونية التي توصل إليها العلماء بالنظر السبي، وحقائق التوحيد تربط بين آيات الله في الكون وذكر الله تعالى في جميع أحوال الذكر، والتدبر في ملكوت السماوات والأرض وصولاً إلى "لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ" دستور تغير ما بالنفس. والله أعلم.

³⁵ للاستزادة يُنظر:- عمار قاسمي. الرؤية التوحيدية في تفسير حركة التاريخ، أطروحة دكتوراه 2016، مخطوط، بمكتبة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، الجزائر، قسم الدوريات، الفصل الأول.

قائمة المصادر والمراجع:

- أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي. الكليات، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، (ط2)، 1419هـ-1998م).
- أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي، الكليات، بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، (ط1)، 1419هـ-1998م).
- أبو القاسم سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، ج1، بيروت: دار الغرب الإسلامي، (ط1، 1998م).
- أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري. نحو القلوب. بيروت: دار الكتب العلمية، (ط1، 1423هـ-2002م).
- أبو الهلال العسكري. الفروق اللغوية، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، القاهرة: دار العلوم للثقافة والنشر والتوزيع، (د ط)، 1419هـ-1998م).
- أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي. أم البراهين، تحقيق: خالد زهري، بيروت: دار الكتب العلمية، (ط1)، 1424هـ-2003م).
- أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي. خطبة شرح الصغرى، مخطوط محفوظ في الخزانة العامة بالرباط، رقم: (5)، ورقة: (155 ب 156).
- أبوزيد عبد الرحمن الثعالبي. حقائق التوحيد، تحقيق وتعليق: نزار حمادي، دون معلومات نشر، (د ط، د ت).
- أحمد بن تيمية. مجموع الفتاوى، ج6، جمع وترتيب عبد الرحمن محمد قاسم، المملكة العربية السعودية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، (د ط، 1425هـ-2004م).
- أحمد بن عيسى الأنصاري. تهذيب واختصار شروح السنوسية أم البراهين، اختصار وتهذيب: عمر عبد الله كامل، دمشق: دار المصطفى للنشر والتوزيع، (ط1، 1425هـ-2005م).
- جميل صليبا. المعجم الفلسفي، بيروت: دار الكتاب اللبناني، (د ط، 1982م).
- الخليل بن أحمد الفراهيدي. كتاب العين، ج1، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، بيروت: دار الكتب العلمية، (ط1)، 1424هـ-2003م).
- سعيد عيادي. أثريات المسألة اللغوية في الجزائر، الجزائر: مطبعة بن مرابط، (د ط، 2014م).
- الشاطبي. الموافقات، ج5، المملكة العربية السعودية: دار بن عفان للنشر والتوزيع، (ط1، 1997م).
- طه جابر العلواني. الأزمة الفكرية المعاصرة تشخيص ومقترحات علاج، الرياض: الدار العالمية للكتاب الإسلامي، (ط4، 1414هـ-1994م).
- طه عبد الرحمن. الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري، بيروت: المركز الثقافي العربي، (ط1، 2005م).
- الطيب برغوث. قواعد المنهج في الحركة الحضارية ليوسف عليه السلام. باتنة الجزائر: دار قانة للنشر والتوزيع، (ط1، 2008م).
- عادل نويهض. معجم أعلام الجزائر منذ صدر الإسلام حتى العصر الحاضر، الجزائر: دار الوعي للطباعة والنشر والتوزيع، (د ط، 1438هـ-2017م).

- عبد الرحمن الأخصري. شرح أم البراهين (صغرى السنوسي)، تقديم وتحقيق وتعليق: لحسن بن علجية، بيروت: دار الكتب العلمية، (ط1، 2018م).
- عبد الرحمن الثعالبي. مجموع مشتمل: كتاب الرؤى والمنامات، الجامع الكبير، حقائق التوحيد، غنيمة الوافد وبغية الطالب الماجد، إرشاد السالك، الجزائر: عالم المعرفة للنشر والتوزيع، (ط خ تلمسان ع ث إس، 2011م).
- عبد الله بن محمد بن حزام الصرف العمراي. سلم السلم، بيروت: دار الكتب العلمية، (ط1، 2018م).
- مالك بن نبي. الظاهرة القرآنية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، تقديم: محمد عبد الله دراز ومحمود محمد شاكر، دمشق: دار الفكر، (إعادة ط4، 2000م).
- محمد الغزالي. حصاد الغرور. القاهرة: دار الشروق، (دط، 1998م).
- محمد بن عبد الكريم المغيلي. لب الباب في رد الفكر إلى الصواب، تحقيق: - أبو بكر قاسم ضيف، بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، (ط1، 1427هـ-2006م).
- محمد بن عبد الكريم المغيلي. لب الباب في رد الفكر إلى الصواب، تحقيق وتقديم وتعليق: أبو بكر بلقاسم ضيف الجزائري، بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، (ط1، 1427هـ-2006م).
- محمد بن منظور. لسان العرب، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرون، القاهرة: دار المعارف، (د ط، د ت).
- محمد عبد الله دراز. مدخل إلى القرآن الكريم عرض تاريخي وتحليل مقارن. ترجمة: محمد عبد العظيم، الكويت: دار القلم، (د ط، 1404هـ-1984م).
- الماللي. شرح أم البراهين، تحقيق: - خالد زهري، بيروت: دار الكتب العلمية، (ط1، 1424هـ-2003م).